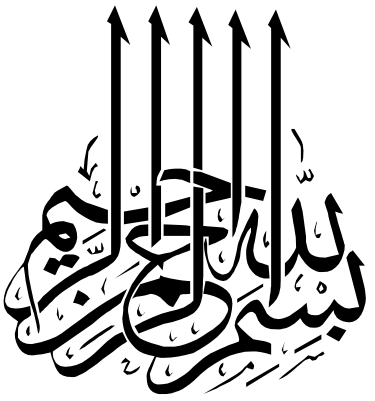
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى روح أستاذى الدكتور/ محمود رجب

أهدى هذا العمل الذى

هو بعض فضل غرسه الطيب .....

أمل مبروك

المقدمة

يختلف تاريخ الأفكار اختلافاً بيناً عن تاريخ الوقائع والأحداث. فإذا كان فى وسعنا أن نعزل واقعة ما عن غيرها من الوقائع أو الأحداث الأخرى، فإنه من العسير – إن لم يكن من المستحيل – أن نفعل الشىء نفسه مع فكرة ما. لأن الفكرة لا يمكن عزلها عن سواها من الأفكار، فهى من ناحية تأتى كأثر لما قبلها وتؤثر من ناحية أخرى فيما يلحق بها من أفكار. فالتأثير والتأثر هو سمة غالبة على تاريخ الفكر البشرى. أما التقسيم الذى نضعه للفصل بين أحقاب وعصور الفكر فهو تقسيم مصطنع وُضع من اجل التصنيف.

والملفت للنظر، أن هناك طرق شتى لتناول تاريخ الفكر الفلسفى. فقد يكون العرض عن طريق طرح الأفكار فى سياقها التاريخى والاجتماعى وربط الفكر الفلسفى بالإطار الذى ظهر فيه، وقد يكون عن طريق عرض تاريخ الفلسفة عرضاً منهجياً للأفكار بمعزل عن الطرق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... إلخ. وهذا الطريق الأخير هو الذى فضلنا أن نسلكه، فلم نرد أن نخوض فى تفصيلات الظروف المحيطة بنشأة الفكرة، واقتصرنا على عرض الأفكار عرضاً تحليلياً أملين أن نفرد بحثاً مستقلاً، نتناول خلاله الجوانب المختلفة لفروع الأفكار الإنسانية منذ فجر الفكر البشرى. انطلاقاً من هذا الفهم الخاص قمنا بتقسيم الكتاب إلى ستة أبواب رئيسية، كل باب يتكون من ثلاثة فصول : الباب الأول وعنوانه : **بدايات الفكر الأوروبى الحديث**، تناولنا فيه ثلاثة فصول. الفصل الأول يتحدث عن "عصر النهضة الأوروبية" وبينا فيه ماذا يمثل عصر النهضة ؟ وكيف ظهرت النهضة أول الأمر فى إيطاليا، ثم تحدثنا عن أعلامها أمثال "دافنشى" و"ماكيافللى"، كما تحدثنا عن النهضة خارج إيطاليا ممثلة فى أعمال "توماس مور". وختمنا الفصل بخلاصة

النزعة الإنسانية التى جسدها بعمق "برونو". أما الفصل الثانى، فكان عنوانه: "حركة الإصلاح الدينى"، تناولنا فيه كيف كان "لوثر" مصلحاً بروتستانتينياً، كما أوضحنا فيه الثورة الأخلاقية وحياة التطهر وأنهيناه بنتائج الإصلاح الدينى.

والفصل الثالث والأخير عنوانه "نشأة العلم الحديث"، بينا فيه بوادر العلم التجريبى عند "روجر بيكون" و"وليم أوكام" ثم وضحنا أهمية العلم الطبيعى وظهوره فى القرن السادس عشر، كما تحدثنا عن ثورة "كوبرنيكوس" ونظريته حول دوران الأرض وختمنا الفصل بتأييد "جاليليو" لهذه النظرية .

أما الباب الثانى، جعلنا عنوانه "**الفلسفة العقلانية**" استعرضنا فى الفصل الأول أفكار "ديكارت" باعتباره أباً للفلسفة الحديثة وكيف سميت فلسفته بالثورة الديكارتية. كما تناولنا المنهج الديكارتى بالتفسير وقواعد هذا المنهج ثم أوضحنا كيف شك فى الحواس والعقل وانتهى إلى اليقين. وختمنا الفصل بميتافيزيقا "ديكارت"، تناولنا فيها الكوجيتو الديكارتى وإثباته لوجود الله ثم تفسيره للعالم الخارجى .

والفصل الثانى : تعرضنا لشخصية "اسبينوزا" حيث تناولنا أهمية المنهج الهندسى ونظرية المعرفة وأوضحنا أهمية فكرة الجوهر والتعريفات المختلفة التى أثارها "اسبينوزا" لهذه الفكرة من حيث أن الجوهر موجود بالضرورة وهو أزلى أبدى لا متناهى، كما بينا علاقة الجوهر بالطبيعة من حيث انتقال العقل من الطبيعة الطابعة إلى الطبيعة المطبوعة ؛ أى من الله ذاته إلى الخلق .

وكان عنوان الفصل الأخير (من الباب الثانى) فلسفة "ليبنتز"، استعرضنا فيه نظرية المعرفة التى استخلص نتائجها من فكرة "المونادا أو الوحدة العنصرية" ثم تحدثنا عن "المونادولوجيا" ومبدأ الانسجام الأزلى وبينا فى هذا الجزء أهمية "المونادا" عند "ليبنتز" باعتبار أنها الجوهر الكائن القادر على الفعل حتى نصل إلى "المونادا" المركزية المطلقة التى تعلو فوق سلسلة المونادات الأخرى وختمنا الفصل بفكرة العدالة الإلهية وكيف تناول فيها "ليبنتز" مفهوم الخير الإلهى والحرية

الإنسانية وأصل الشر فى العالم .

وخصصنا الباب الثالث للحديث عن "**الفلسفة التجريبية**" ويضم فلسفة "بيكون" و"لوك" و"هيوم"، الأول باعتباره المؤسس الحقيقى للمنهج العلمى الحديث، حيث انصب اهتمامه على الطبيعة العامة للتفكير العلمى وعلاقته بالإشكاليات الفلسفية المتعلقة بالإنسان والكون. وفى معرض هذا، أوضحنا تصنيف العلوم الذى يعد أول مهام "الإحياء العظيم"، كما تحدثنا عن الجانب السلبى فى "الأورجانون الجديد" وهو الخاص بنقد العقل والأوهام الشائعة بين الناس، ثم بينا الجانب الإيجابى المتمثل فى المنهج الاستقرائى الذى يعتمد على فهمنا للطبيعة .

وثانى فيلسوف وهو "لوك" وترجع أهميته فى أنه أول من وضع مشكلة المعرفة الإنسانية موضع البحث الفلسفى المستقل عندما أصدر كتابه "مقال عن الفهم الإنسانى"، وفى عرضنا لفلسفته وقفنا عند رفضه لأهم مبدأ فى الاتجاه العقلى وهو الإيمان بوجود "الأفكار الفطرية" حيث رأى أن الإنسان يولد وعقله يشبه الصفحة البيضاء الخالية من أى معان أولية أو أى أفكار فطرية. كما أوضحنا أصل الأفكار من حيث تقسيمه لها إلى أفكار بسيطة وأفكار مركبة. وأنهينا الفصل بنظريته السياسية باعتباره مؤسس الاتجاه الديمقراطى الليبرالى فى العالم الغربى .

أما "هيوم" فقد استعرضنا فى فلسفته "تحليل المعرفة الإنسانية" من خلال تقويضه للأفكار الفطرية الموجودة فى العقل، وتأكيده أن كل الأفكار تأتى إلينا عن طريق الإحساس أولاً ثم التفكير ثانياً، كما تحدثنا عن مفهوم الاعتقاد الدينى عند "هيوم" من منظور فكرة الدين الطبيعى الذى آمن أتباعه بوجود إله ولكنهم أنكروا الأسرار الدينية المتصلة بألوهية المسيح وصلبه، ودعوا إلى التسامح وحق الإنسان فى حرية الفكر فى المسائل الدينية والسياسية على السواء .

وإذا انتقلنا إلى الباب الرابع فسنجد عنوانه : "**الفلسفة المثالية**" عرضنا فيه مقدمة موجزة عن معنى المثالية فى تاريخ الفلسفة ثم تناولنا فى الفصل الأول

فلسفة "كانط النقدية" بالدراسة والتحليل، وبينا معنى النقد من حيث أنه يعنى نقد قدرة العقل بوجه عام فيما يتعلق بكل المعارف، كما أوضحنا الأهمية التاريخية للمشكلة النقدية. واستعرضنا – فى هذا الفصل – الفلسفة المشروعة التى تختص بعالم الظاهر والفلسفة غير المشروعة التى تتعلق بعالم الميتافيزيقا التقليدية أو عالم الأشياء فى ذاتها. ثم تحدثنا عن الأخلاق الكانطية من خلال استعراض مفهوم الواجب الأخلاقى والأوامر المشروطة والأوامر المطلقة وقواعد الفعل الأخلاقى. وختمنا الفصل بمفهوم الدين عند "كانط"، حيث رأى أن الدين ليس عقيدة نظرية بل هو عبادة روحية .

وتناولنا فى الفصل الثانى "فلسفة فشته" استعرضنا فيه علاقة "فشته" بالفلسفة الكانطية، ثم بينا طابع الذاتية فى نظرية الوجود عنده حيث أرجع كل شىء إلى مبدأ واحد هو "الأنا" أو "الذات" ولهذا سميت مثاليته بـ "المثالية الذاتية".

أما الفصل الثالث، فخصصناه لفلسفة "شلنج" الذى أراد الخروج من الذاتية إلى الموضوعية وذلك بما قام به ضد "فشته" بأن أنشأ أولاً فلسفة الطبيعة ثم فلسفة الفن حتى وصل إلى مفهوم الحرية وتوكيد الوعى المسيحى .

والباب الخامس عنوانه : "**المثالية المطلقة**" تناولنا فى الفصل الأول مثالية "هيجل" الذى نجح فى أن يعطينا أكثر المذاهب المثالية اتساقاً عندما قال أن الواقع النهائى هو روح مطلق. ويتناول الفصل عناصر فلسفة "هيجل" وهى علم المنطق أو علم الفكرة الخالصة، وفلسفة الطبيعة أو دراسة العالم الخارجى، ثم فلسفة الروح أى وحدة الفكر والطبيعة. كما تناولنا بالحديث مفهوم الدين والمعرفة المطلقة وبينا كيف أن الدين يعد عند "هيجل" مرحلة ضرورية فى التطور الجدلى للروح.

والفصل الثانى عنوانه "مثالية برادلى" الذى يعد من رواد الحركة المثالية الجديدة فى إنجلترا، وتناولنا – فى هذا الفصل – علاقة "برادلى" بفلسفة "هيجل" من خلال رؤيته للعالم واشتماله على ثلاثة مستويات : عالم الشعور المباشر، وعالم الفكر،

ثم عالم الواقع أو المطلق. كما تحدثنا عن الترابط بوصفه معياراً للحقيقة حيث يسعى دائماً إلى هدف يحقق الفكر من خلاله غاية قصوى هى الوصول إلى المطلق، كما بينا حقيقة العالم عند "برادلى" من حيث هو يشكل وحدة كلية هى وحدة المطلق .

وتناولنا فى الفصل الثالث "مثالية بوزانكت" الذى يُعد أيضاً من أتباع الحركة المثالية الجديدة، والتى تعتبر فلسفته إعادة بناء مستقلة وتوسعاً وتطبيقاً لتعاليم "برادلى". وعرضنا – فى هذا الفصل – لمفهوم المنطق ونظرية المعرفة، عن طريق ارتباطه بصور الحكم والاستدلال وأيضاً من خلال أن مضمون المنطق هو نفسه مضمون الميتافيزيقا التى تتضح فى عملية الترابط. ثم تحدثنا عن "الأخلاق والسياسة" عند "بوزانكت" الذى يعد أول مفكر انجليزى يقوم بعملية إحياء حقيقية لفكرة الدولة .

نصل إلى الباب السادس والأخير وعنوانه "**فلسفة الحياة**" استعرضنا فيه أولاً : فلسفة "شوبنهور" باعتباره أول فيلسوف يركز بعمق على مفهوم الإرادة لا على العقل، كما أنه أول من اتجه من الفلاسفة الغربيين إلى الشرق وخصوصاً "الهند". وتناولنا مفهومه للعبقرية التى تعنى إنموذج الإنسان الذى استطاع أن يحرر عقله من سلطة الإرادة. كما بينا بالدراسة والتحليل النظرة التشاؤمية التى اتسمت بها فلسفة "شوبنهور" حيث رأى أنه يكفى أن يتطلع أشد الناس تفاؤلاً على أماكن البؤس والتعاسة والمرض والقتال والجريمة ليرى إلى أى حد كان هذا العالم هو أفضل عالم ممكن، وأن المذاهب التى تدعو إلى التفاؤل ما هى إلا مذاهب لفظية خالية من المعنى ؛ ولا أحد يظن أن الإيمان المسيحى يدعو إلى التفاؤل وإنما العكس وذلك يجعل الحياة والشر كلمتين مترادفتين .

ثانياً : فلسفة "نيتشه" الذى تحدث عن إرادة القوة التى تحل محل "الأخلاقية"، فقد أبى الإنسان – من وجهة نظره – أن ينحصر فى نظام من الأوامر والنواهى وأن يقيد نفسه بقيم ثابتة واتخذ هدف أخر هو المزيد من الإعلاء بحياته

والسعى إلى إثرائها وهذا السعى هو إرادة القوة، وتتحدد هذه الإرادة فى مفهوم "السوبرمان" أو الإنسان الأعلى كما تصوره "نيتشه" وهو ليس امتداد للفرد الأرستقراطى المنعزل، بل أنه سيظهر من المجموع أى من أولئك الذين كان "نيتشه" يعدهم عبيداً لا سادة .

كما تناولنا ثالثاً : فلسفة "برجسون" ومفهومه عن "حدس الديمومة" الذى يعد المحور الذى تدور حوله كل فلسفته. وهو يعنى بـ "الديمومة" الزمان الحقيقى أو "الديمومة الباطنة" على نحو ما تحياها الذات فى الزمان. كما بينا كيف تنبع مشكلة الحرية من اكتشاف "برجسون" للزمان الحقيقى أى أن الديمومة المتصلة والاستمرار المطلق هو الذى أدى به إلى القول بالحرية على اعتبار أنها واقعة مباشرة من معطيات الشعور الإنسانى، كما تحدثنا عن مفهوم "التطور الخالق" الذى يعد عند "برجسون" بحثاً يشمل علم الحياة وعلم الكون لكى ينتهى به فى خاتمة المطاف إلى العلم الإلهى.

ونأمل أن يحقق هذا العرض الذى قمنا به لتاريخ الفلسفة الحديثة الهدف الذى وُضع من أجله وهو بيان السمة الرئيسية لتاريخ الأفكار المتمثلة فى التأثير والتأثر.

والله الموفق ،،

د. أمل مبروك

* * * *